

# الفصل الثالث

وبزغت شمس الإسلام

وتغيرت مكانة شبه جزيرة العرب كلها

obeikandi.com

## وبزغت شمس الإسلام وتغيرت مكانة شبه جزيرة العرب كلها

إن بزوغ شمس الإسلام في شبه جزيرة العرب، وتمكنه من نفوس أبنائها، ثم حملهم أمانته إلى شتى بقاع العالم المعروف آنذاك، في فترة من الزمان وجيزة بكل المعايير والمقاييس، لمعجزة من معجزات الزمان لا يعرف كنهها إلا صاحب الدين نفسه . . . جلت قدرته .

فمن بين حضارات العالم، السابقة على حضارة الإسلام، كانت هناك حضارات صاحبة سلطان ونفوذ، وصاحبة ملك عريض وممالك أو إمبراطوريات شاسعة الأطراف ولم يكن العرب أصحاب شيء من هذا، حتى وإن رد البعض بأنه كانت لهم ممالك في اليمن أو على حدود الجزيرة بجوار بلاد فارس أو الروم، فلم يكن هناك وجه للشبه بين حضارة المصريين القدماء الضاربة في التاريخ والتي استمرت لآلاف السنين في مصر، بجانب تأثيرها فيمن حولها، خاصة ناحية الجنوب في قلب إفريقيا، وعلى شطآن البحر الأحمر، أقول لم يكن هناك وجه للشبه بين هذه الحضارة وأصحابها من الفراعنة الذين حكموا مصر من عاصمه موحدة، وسجلوا حضارتهم على أوراق البردي، وعلى جدران المعابد كما سنوا قوانين للبلاد حكموها على أساسها، وتركوا آثارا لم يمحها الزمان إلى الآن، وبين التواجد العربي المبعثر على أرض شبه الجزيرة العربية .

إن العرب كمجموعة بشرية كانت تعيش على رقعة أرض خاصة بهم لم يحدث أن تجمعوا كلهم في دولة واحدة، لها عاصمة معترف بها طوال تاريخهم قبل الإسلام، وإنما هم تناثروا على أرض الجزيرة في مجموعات قبلية كان بعضها أو معظمها يتحرك على الأرض تبعا للكلاء وللمرعى، والبعض الآخر استقر في بعض المراكز الحضارية

مثل مكة، حول أول بيت وضع للناس، والذين كان تجمعهم بسبب استجابة الله عز وجل لدعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، أو في اليمن في بلاد سبأ، وكذا في أراضي الغساسنة والمناذرة.

ونستطيع أن نمضي في القياس والمقارنة بين عرب شبه الجزيرة، وبين الحضارات الأخرى في بلاد الصين والهند واليابان، وفي بلاد فارس واليونان والرومان، وفي جميعها سوف نجد أن الميزان يميل لصالح الحضارات الأخرى دون عرب الجاهلية، والذين كان البعض يعتبرهم حضارة هامشية تعيش على هامش الحضارات الأخرى، وخاصة حضارة الفرس وحضارة الرومان، في بلاد فارس وعلى حدود بلاد الشام على الترتيب.

فجأة ظهر نور الإسلام من قلب الجزيرة العربية، في مكة المكرمة، وأخذت الأنبياء تتوالى إلى مواطن تلك الحضارات تتحدث عن دعوة يبشر بها نبي جديد، هو محمد بن عبدالله، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وصارت الركبان تحمل أخبار ذلك النبي، وأخبار ما يلقاه من عنت واضطهاد من بني قومه، ثم وصلت أخبار المؤمنين الجدد إلى إفريقيا حين خرجت أول دفعة من المهاجرين المسلمين إلى بلاد الحبشة، حيث استقبلهم ملكها «النجاشي» وأكرم وفادتهم على مدار سنوات إقامتهم هناك، ودخل الرجل نفسه، أي النجاشي، الدين الإسلامي، ومات مؤمناً موحداً.

وضاقت مكة وشعابها بالمسلمين، وأمعن أهلها في اضطهاد المسلمين حتى سقط منهم شهداء من الرجال والنساء فأمرهم الرسول، صلى الله على وسلم، بالهجرة إلى المدينة التي فتحت لهم صدرها مرحبة، ووصلها المصطفى، صلى الله عليه وسلم، ليقوم فيها مسجده، وليؤسس للإسلام دولة سوف تكون عاصمتها هي المدينة المنورة، ورجالها هم المؤمنون الذين باعوا أنفسهم لله، وسوف يكون محمد، صلى الله عليه وسلم، المعلم الأسمى الذي بدأ تربيتهم في مكة، في دار الأرقم بن أبي الأرقم، هو حاكم تلك الدولة، والمنفذ لشريعة الله على الأرض.

ومن هذه البداية ظهرت، ولأول مرة، حضارة العرب التي ارتكزت على تعاليم الإسلام، ولذا كان من الإنصاف - دوماً - أن تسمى حضارة الإسلام، وإنما العرب هم الذين بدأوها، وهم الذين حملوها إلى الدنيا، فكيف حدث هذا، وكيف أرسيت دعائم تلك الحضارة في هذه المنطقة من العالم . . ؟

### **وكانت البداية.. تربية:**

تربية بدأها الرسول، صلى الله عليه وسلم، في مكة، في دار الأرقم ابن أبي الأرقم، أول مدرسة للإسلام، حيث عمل المعلم الأسمي، عليه أفضل الصلاة والسلام، على غرس بذور العقيدة في نفوس أصحابه الذين آمنوا بالرسالة، والذين تحملوا معه عنف المشركين واضطهادهم، ولقد ركزت تربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، لصحابته على عدة أمور يمكن تلخيصها فيما يلي:

- ركزت على الإنسان . . روحاً، يرتبط بخالقه، بحيث يستشعر وجوده معه في كل لحظة . . وفي كل مكان.

- وركزت على الإنسان . . عقلاً، بكل ما حباه الله في هذا العقل من قوة إبداع وتفكير وتنظيم وترتيب.

- وركزت على الإنسان . . نفساً، بكل ما يشتمل عليه ذلك من صفاء وهدوء وتكيف مع الذات ومع الآخرين.

- ركزت على الإنسان . . جسماً، بكل ما أودعه الله فيه من قوة وحيوية ونشاط يسخرها لعبادة الله أولاً، ثم يعمل - من بعد ذلك - لصالحه ولصالح الآخرين من حوله.

- وركزت على الإنسان . . خلقاً، بحيث يتعامل مع الناس كما يجب أن يتعاملوا معه، وبحيث يجب لهم ما يجب لنفسه.

والإنسان - بهذا المفهوم - لا يمكن إعداده وتدريبه ، بل وتنشئته منذ البداية ، إلا من خلال التربية ، التربية المسؤولة التي تضع لنفسها أهدافا واضحة ، وخططا وبرامج مدروسة ، بحيث تعمل كي تخرج لنا وللمجتمع ذلك الإنسان الذي تسعد به الحياة ، ويسعد هو بها ، الإنسان المتوافق مع ذاته ومع الآخرين .

وإذا كانت هناك تربيّات - باتساع العالم ، وعلى مدار التاريخ - قد نجحت وأفلحت في تخريج الإنسان الناجح في عدد من جوانب شخصيته ، إلا أن الشخصية المتكاملة لم تتحقق على وجه اليقين إلا من خلال التربية التي ربي بها محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أصحابه ، بحيث أصبح كل واحد منهم يمشي على الأرض وكأنه قرآن متحرك ، يستشعر مراقبة الرحمن ، جل وعلا ، له في كل حركاته وسكناته ، ولذا فلم يكن غريبا أن يتغير مجتمع الجزيره العربية ، من النقيض إلى النقيض ، في عدة عقود من الزمان ، هي في عمر الشعوب دقائق معدودة ، كي تخرج منه عناصر رائعة تقيم حضارة إسلامية زاهرة اعترف بها وبِعظمتها وسرعتها الأعداء قبل الأصدقاء .

حضارة أذهلت العالم ، وقدمت له إسهاماً في كل مجال ، من العلم . . إلى السياسة ، ومن الاقتصاد . . إلى الاجتماع ، ومن الجهاد في سبيل الله . . إلى البناء والتعمير ، ومن البحث العلمي والتجريب . . إلى النظر والتحليل ، وأهم من ذلك كله أنها قدمت له قيما عظمى نحتاجها كلنا الآن ، ويحتاجها العالم معنا على وجه اليقين<sup>(١)</sup> .

ونقرأ عن أسلوب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في تربية أصحابه ، فقد كان «يغذي أرواحهم بالقرآن ، ويربي نفوسهم بالإيمان ، ويخضعهم أمام رب العالمين خمس مرات في اليوم عن طهارة بدن ، وخشوع قلب ، وخضوع جسم ، وحضور

(١) محمد عبد العليم مرسي ، مرجع سابق ، ص ص ١٢ - ١٣ .

عقل، فيزدادون كل يوم سمو روح، ونقاء قلب، ونظافه خلق، وتحررا من سلطان  
الماديات، ومقاومة للشهوات، ونزوعا إلى رب الأرض والسماوات، ويأخذهم بالصبر  
على الأذى، وعلى الصفح الجميل وقهر النفس (١).

### وكانت الثمار.. رائعة:

حيث تخرج من مدرسة الإسلام العظمى، أو جامعته التي لا نظير لها عبر قرون  
التاريخ كلها، قادة في كل مجال، وأئمة في مختلف المجالات، وعلماء في كل  
التخصصات، ومجاهدين في كل مناحي الحياة، يقول عنهم خالد محمد خالد، رحمه  
الله:

«لقد جاءوا إلى الحياة في أوانهم المرتقب، ويومهم الموعود.. فحين كانت الحياة  
تهيب بمن يجدد لقيمها الروحية شبابها وصوابها، جاء هؤلاء مع رسولهم الكريم  
مبشرين وناسكين..»

وحين كانت تهيب بمن يضع عن البشرية الرازحة أغلالها، ويجرر وجودها  
ومصيرها، جاء هؤلاء وراء رسولهم العظيم ثواراً ومحربين. وحين كانت تهيب بمن  
يستشرف للحضارة الإنسانية مطالع جديدة ورشيدة، جاء هؤلاء رواداً ومستشرفين.

كيف أنجز أولئك الأبرار كل هذا الذي أنجزوه في بضع سنين..؟ وكيف دمدموا  
على العالم القديم بإمبراطورياته ووصولاناته وحولوه إلى كتيب مهيل..؟ كيف شادوا  
بقرآن الله وكلماته عالماً جديداً يهتز نضرة.. ويتألق عظمة.. ويتفوق اقتداراً، وقبل  
هذا كله، وفوق هذا كله.. كيف استطاعوا في مثل سرعة الضوء أن يضيئوا الضمير

الإنساني بحقيقة التوحيد، ويكنسوا منه إلى الأبد وثنية القرون..؟؟

تلك هي معجزتهم الحققة.. (٢)

(١) أبو الحسن علي الحسيني الندوي، مرجع سابق، ص ص ٨٥-٨٦.

(٢) خالد محمد خالد: رجال حول الرسول، دار الفكر، بيروت (بدون تاريخ)، ص ٨.

ويضيف كاتبنا الإسلامي، رحمه الله، بُعداً جديداً في شخصيات صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو «البعد النفسي» الذي لا يمكن أن يوجد إلا في ظل تربية إسلامية رائعة، وتدريب على ضبط النفس غير سهل ولاهين، وأيضاً فإن معجزتهم الحقه تتمثل في تلك القدرة النفسية الهائلة التي صاغوا بها فضائلهم، واعتصموا بإيمانهم على نحو يجلب عن النظر. . !!

على أن كل معجزاتهم التي حققوها، لم تكن سوى انعكاس متواضع للمعجزة الكبرى التي أهلت على الدنيا يوم أذن الله - جلّت قدرته - لقرآنه الكريم أن يتنزل، ولرسوله الأمين أن يبلغ، ولموكب الإسلام أن يبدأ على طريق النور خطاه. . (١) !!

إن هؤلاء الصحابة العظام الذين غيروا وجه الدنيا كلها، لاوجه جزيرة العرب فحسب، كانوا هم الثمرة الجنية الأولى لتربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، ثمرة جهد وصبر وتعب وسهر المعلم الأسمى، عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد منح الرسالة العظمى والسامية كل ما لديه من طاقة ومن جهد، بل منحها حياته كلها، بكل ما في تلك الحياة من لحظات، عملاً بقول الله عز وجل: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين﴾ (الأنعام / ١٦٢-١٦٣).

يقول الشيخ محمد قطب، حفظه الله، عن هؤلاء الصحابة العظام أنهم المقصودون بقول الله عز وجل ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (آل عمران/ ١١٠).

ولقد كانت خير أمة في تاريخ البشرية كلها، وقد حوت من ألوان العظمة في كل اتجاه ما لم يجتمع لأمة أخرى في التاريخ بهذه الوفرة، وذلك التعدد وتلك الآفاق،

(١) المرجع السابق، ص ٨-٩.

عظمت حربية، وعظمت سياسية وإدارية، وعظمت نفسية، وعظمت روحية،  
عظمت من كل نوع، وفي فترة وجيزة من عمر الزمان كأنها لحظات . . !!  
وتلك الأمة هي التي وضعت أسس التاريخ الإسلامي المقبل كله، والتي رسخت  
قواعده على الأرض، بما قدمت من مبادئ وقيم ومثل عليا مطبقة في عالم الواقع  
بصورة فريدة في التاريخ، صورة يلتقي فيها المثال والواقع فلا تكاد تعرف من روعة  
العظمة المذهلة أيهما الواقع وأيها المثال (١) . . !!

### ولكن.. ما سر هذه التربية الإسلامية العظيمة؟

إن العالم، كله تقريباً، مشغول بقضية التربية قرب بدايات القرن الحادي  
والعشرين، وهناك أفكار تربوية كثيرة، وهناك فلسفات وتنظيرات، ونعقد للتربية  
مؤتمرات ونقيم ندوات، هنا في عالمنا، كما تقام وتعقد أمثال هذه الندوات باتساع  
العالم، وخاصة في العالم الغربي ولكن، وحتى الآن، لم نتوصل نحن، كما لم يتوصل  
غيرنا، إلى سر التربية الإسلامية التي أبدعها خير معلم للإنسانية، صلى الله عليه  
وسلم، ويقيني أن السبب يكمن في أننا غفلنا، كما غفل غيرنا، عن حقيقة هامة،  
رغم وضوحها وضوح الشمس، وهي أن منهج التربية الإسلامية التي أبدعها  
المصطفى، صلى الله عليه وسلم، نزل من فوق سبع سموات، من لدن حكيم  
خبير، وهو خالق البشر، جلت قدرته، ولذا جاء منهجه ليعالج أرواح ونفوس  
وعقول ووجدانات أولئك البشر، بل وحتى طموحاتهم في هذه الحياة الدنيا،  
وتربيتهم على أن هناك حياة آخرة بعد البعث، وينبغي على المسلم أن يسعى لها وأن  
يعمل من أجلها، وهي بذلك تربية من نوع جديد، والتربية بهذا الشكل «في أوسع  
معانيها تعني عمليات النمو التي يمر خلالها الإنسان من طفولته إلى نضجه ليتكيف

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، الجزء الثاني، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ١٤٠٩هـ -

مع بيئته المادية والاجتماعية، وبذلك يتعدى المعنى الواسع للتربية، معناها التعليمي، ليتضمن المعنى الروحي والاجتماعي والاقتصادي والمهني. . الخ» كما يقول الخطيب وزملاؤه (١).

ويؤكد علي خليل على قضية «المنهج» المنزل من عند الله، جلت قدرته، لأنه منهج كامل للحياة، يجد فيه من يريد فلسفة تربوية تجيب على جميع أسئلة الفلاسفة، وتحدد العمليات التربوية بعيدا عن النظريات الجدلية، والفروض الظنية التي تختلف فيها العقول، وتتعارض الأفهام (٢).

ومن نافلة القول أن نعود فنؤكد على ان المعلم الأسمي، صلى الله عليه وسلم، كان هو المنفذ لكل ما جاء في القرآن الكريم من توجيهات وأوامر ونواهي، سواء تم ذلك من خلال سنته العملية، أو القولية (الأحاديث النبوية الشريفة) أو التقريرية، فالربط بين القرآن الكريم، المنهج المنزل من عند الله، سبحانه وتعالى، وبين سنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، مطلوب لفهم طبيعة التربية الإسلامية التي خرجت للعالم خير أمة أخرجت للناس، أو كما يقول «بكر»، «القرآن الكريم هو الإطار النظري في الإسلام، والحديث الشريف (السنة) هو الترجمة الحية له إلى واقع عملي» (٣).

ويؤكد مقداد يالجن على تميز الإسلام باعتباره منهج حياة وسلوك، وأنه يقدر جميع متطلبات الإنسان الضرورية، وحاجاته الأساسية، ويقرر لها نصيبا من الحياة، بقدر

---

(١) محمد شحات الخطيب وآخرون: أصول التربية الإسلامية، دار الخريجي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ص ٢٧.

(٢) علي خليل أبو العينين: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، دار الفكر العربي (القاهرة) ط ٢، ١٩٨٥م، ص ٤١.

(٣) عبد الجواد سيد بكر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، دار الفكر العربي، (القاهرة) ١٩٨٣م، ص ٨٩.

تلك الحاجات ، وبصورة متوازنة ومعتدلة ، ومن ثم نجده قد قرر لكل جانب من جوانب الإنسان الفطرية من الناحية العقلية والروحية والجسمية نصيباً من الحياة المتوازنة ، حتى لا يطغى بعضها على بعض ، وحتى لا يبقى الإنسان أسيراً لها ومحكوماً بها ، أو عبداً تسيره كما تشاء . (١)

ويوضح «متولي» أن نمط التربية الإسلامية التي استخدمها الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، لم تكن تربية مدرسية بالمفهوم الضيق للتربية ، وإنما كانت تربية شاملة ، مدرسية ولا مدرسية ، في المسجد ، وفي الشارع ، في المنزل ، وفي المدرسة : في ميدان القتال ، في الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وفي كل لحظة من لحظات الليل والنهار» (٢) .

غاية الأمر هنا أن تربية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لصحابته - في ضوء القرآن الكريم - لم تترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الصحابة إلا وتعاملت معها ، كما لم تترك شيئاً في كيان هؤلاء الصحابة إلا ومسته بحكمة ووعي بحيث أضحى هؤلاء الصحابة وقد تفجرت الطاقات الرائعة والخيرة الموجودة داخلهم . لقد تعاملت تربية الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، مع مطالب أجسامهم ، ومع ومضات عقولهم ، كما تعاملت مع خلجات قلوبهم ، وهذا شيء يغيب عن جميع أنواع التربيات الأخرى ، كذلك تعاملت مع روح الإنسان المسلم ، وذلك أمر يغيب كذلك عن كل تربية أخرى . (٣)

(١) مقدار باجن : جوانب التربية الإسلامية الأساسية ، مؤسسة دار الريحاني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) مصطفى محمد متولي : مدخل إلى تاريخ التربية الإسلامية ، دار الخريجي للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، ص ١٥٨ .

(٣) حسن إبراهيم عبد العال : مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية . . التربية والطبيعة الإنسانية ، عالم الكتب ، الرياض ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

ويتفق «يا لجن» على هذا الشمول الذي تتميز به التربية الإسلامية، والتي تهدف إلى «تنشئة وتكوين الإنسان المسلم المتكامل من جميع نواحيه المختلفة: من الناحية الصحية والعقلية والاعتقادية والروحية والأخلاقية والإرادية والإبداعية في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ والقيم التي أتى بها الإسلام، وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي بينها»<sup>(١)</sup>

ويبين النحلاوي الصلة الوثيقة - في التربية الإسلامية - بين القرآن الكريم، المصدر الأول لتلك التربية، وبين السنة النبوية المطهرة، المصدر الثاني لها، وكيف أن الاثنين معاً، واللذين لا ينفصلان عن بعضهما هما اللذان كانا من خلف ظهور الرعيل الأول من المسلمين الذين فتحوا الدنيا، ونقلوها إلى عصر الحضارة الإسلامية التي سادت العالم مئات السنين<sup>(٢)</sup> ونفس هذه التوجهات نجدها عند باحث إسلامي آخر في التربية، هو علي خليل، ودراسته عن التربية الإسلامية وتنمية المجتمع الإسلامي تبين هذا وتوضحه<sup>(٣)</sup>.

أما «ولد أباه» فيحدثنا عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والذي جعل منهواجه الأول تعليم القرآن الكريم، يتلقاه علماء الصحابة عنه، يكتبونه في الألواح والصحف والحجارة والعظام، يجتهدون في حفظه، ويقتصرون على آيات معدودات، لا يتجاوزونها حتى يعرفوا ما فيها من حلال وحرام (كان الأولى بالكاتب أن يقول: حتى يعملوا بها، فلم تكن المعرفة فقط هي مهمهم... وإنما العمل)، وإذا

(١) مقداد يالجن: أهداف التربية الإسلامية وغايتها، (بدون ناشر)، ١٤٠٦هـ، ص ٢٠.

(٢) عبد الرحمن النحلاوي: التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة، المكتب الإسلامي، بيروت مكتبة أسامة، الرياض، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ص ٢٤-٢٥.

(٣) علي خليل أبو العينين: التربية الإسلامية وتنمية المجتمع الإسلامي... الركائز والمضامين التربوية، مطابع سحر، جدة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

حفظ أحدهم سورة البقرة جل فيهم (أي عظم في نظرهم) . . كما كانوا يتلقون أحاديثه، دون أن يكتبوها، مخافة أن يختلط بالقرآن الكريم ما ليس منه، وكان منهم الكثيرون الذين نشطوا في جمع الحديث . . ولم يقتصر تعليم الصحابة على دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف، وإنما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مثالا بين أظهرهم، فكانت أفعاله وتقريراته كلها مدرسة حية، تبين التطبيقات العملية للتشريع الإلهي، وتتم مكارم الأخلاق . . فجمعت هذه المدرسة النبوية تعاليم الوحي، وحكمة من لا ينطق عن الهوى، صلى الله عليه وسلم، كما جمعت هذه المدرسة النبوية تنشئة أخلاقية قوامها عمل وعبادة، ورحمة وعدل، وسلوك قويم، سواء فيما يعني أداء الفريضة التعبدية، أو فيما يعني التصرف في المعاملات البشرية. (١)

ويربط سعيد اسماعيل بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة برباط محكم، لافكالك منه، حين يكتب « فالدين بما هو هدى إلهي يتصف بالمشالية والكمال، فهو تعاليم يتمثل فيها الحق المطلق، بناء على الكمال الإلهي في العلم الشامل بأحوال الوجود، والمحيط بمصلحة الإنسان في مختلف متطلبات حياته، كما أن الدين - والحديث عن الدين الإسلامي - حقيقة مصدعة (؟) لهدى الإنسان مطلقا من مفيدات وجوده الزمانية والمكانية، فهي في أوامرها ونواهيها تخاطب بالتكليف للناس على اختلاف أوضاعهم الذاتية. (٢)

ويبين الكاتب نفسه أن التربية الإسلامية لها بعد مهم يختلف فيه عن باقي

---

(١) محمد المختار ولد أباه: التربية الإسلامية بين القديم والحديث، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية

والعلوم والثقافة (إيسكو)، بدون مكان نشر، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، ص ١٤.

(٢) سعيد إسماعيل علي: الأصول الإسلامية للتربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٢هـ -

١٩٩٢م، ص ١٣.

التربيات الأخرى «إنها تبني فلسفتها على أساس أن الفرد حي في الدنيا، وصائر بعد ذلك إلى الآخرة، وله في الدنيا مطالبه وضروراته التي تحتاج إلى تنظيم وتشريع ولكن لا ينسي أن عمره محدود على الأرض، وأن طريقه في هذه الدنيا يؤدي إلى الآخرة». (١)

أما النقيب فيفرق بين «التربية الإسلامية»، والتربية الدينية، إذ أن الأولى، أي التربية الإسلامية، ليست تربية العاطفة الدينية فقط، أو تعليم العبادات أو بث الأخلاق، ولكنها تربية العاطفة . . . والعقل . . . والجسد . . . والروح . . . وكل أنواع السلوك التي تربي الفرد كي يسلك سلوكا إسلاميا موافقا لمنهج الله وشريعته .

والتربية الإسلامية - عنده - بهذه المعنى الشامل، وجدت مع ظهور الإسلام ووضوح تعاليمه ورسالته، ثم نمت وترعرعت في عصور القوة والازدهار، وفتحت أبوابها لكل الثقافات حتى أثمرت أجيالا متعاقبة من العلماء والمفكرين، ورجال السياسة، الاقتصاد، والحرب والسلام، والدعوة إلى الله. (٢)

ويؤكد الشيخ القرضاوي على التفرقة بين التربية الإسلامية وغيرها من أنواع التربيات الأخرى، وحتى داخل المجتمع الواحد، يؤكد على التفرقة بين التربية الإيجابية، والأخرى السلبية «وكل تربية إنما تتكيف بحسب الغاية منها حتى في الحيوانات (!! ) فالبقرة التي تربي للبن، غير التي تربي للحم، غير التي تربي للحرث . . !!

وكذلك الإنسان والتربية، فتربية الإنسان الوجودي، غير تربية الإنسان الشيعوي، وهما غير تربية الإنسان البورجوازي، أو الرأسمالي، وكلها غير تربية الإنسان المسلم. وتربية المسلم التقليدي غير تربية المسلم الإيجابي . . تربية المسلم في

(١) سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٨.

(٢) عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب : بحوث في التربية الإسلامية، الكتاب الأول، دار الفكر العربي،

القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٢.

مجتمع يحكمه القرآن، وتسيطر عليه تعاليم الإسلام، غير تربية المسلم في مجتمعات تصطرع فيها الجاهلية والإسلام ويتنازعها الكفر والإيمان، والتحلل والالتزام. (١)

ونختم هذا الجانب المتعلق بماهية التربية الإسلامية بالعنصر الفارق - في رأينا - بينها وبين جميع أنواع التربيات الأخرى. وهو عنصر الروح فيها، أو عنصر التربية الروحية، والتي أولها نبي الإسلام، ومعلم البشرية، صلى الله عليه وسلم، أكبر عناية وأجلها، حتى حولت البشر الذين رباهم، الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم أجمعين، إلى بشر من نوع آخر، بشر يعيشون على الأرض، يمشون بين الناس يأكلون ويشربون، يقومون وينامون، يتعاملون ويجاهدون، ولكن أرواحهم معلقة برب السماء والأرض، يعيشون وكأنهم من فرط خشيتهم إياه يرونه بعيونهم، لقد رفضت امرأة مسلمة أن تتزوج عمر بن الخطاب، وهو أمير المؤمنين، ولكن رفضها كان وساماً يتمناه أي إنسان لأنها وصفت عمر، رضى الله عنه، بأنه رجل أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه، وبأنه يعيش وكأنه يرى الله. عز وجل، وبعبارات العقاد، رحمه الله:

إن امرأة واحدة ترفض عمر لأعلى في الشهادة من ألف امرأة يقبلن على بيته، ويطمعن في سلطانه، وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفا، لم نسمعه فيما قيل عن إيمانه أنه أصدق منه، ولا أوجز وأوفي، فقالت أم إبان بنت عتبة ابن ربيعة: إنه رجل «أذهله أمر آخرته عن أمر دنيا، كأنه ينظر إلى ربه بعيته». (٢)

هذه هي الروح التي نعنيها، وهي أن يكون الإنسان، خريج مدرسة التربية الإسلامية، معلق قلبه بالسماء، يرى الله معه في جميع الأحوال، وقد عبر رسول

(١) يوسف القرضاوي: التربية الإسلامية ومدرسة حسن البناء، مكتبة وهبة القاهرة: ط ٢، ١٤٠٢هـ -

١٩٨٢م، ص ٦.

(٢) عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، مرجع سابق، ص ٢١٦.

الله، صلى الله عليه وسلم، حينما سأله بعض الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم أجمعين، عن الإحسان، فقال أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وتلك لعمري قمة من قمم التربية الروحية لم توجد على وجه الأرض إلا في التربية الإسلامية.

يقول الشيخ محمد قطب: والإسلام يعني عناية خاصة بالروح. . إنها - في نظري - مركز الكيان البشري، ونقطة ارتكازه. إنها القاعدة التي يستند إليها الكيان كله، ويترايط عن طريقها. إنها المهيمن الأكبر على حياة الإنسان إنها الموجه إلى النور. يكفي أنها صلة الإنسان بالله.

والإسلام - في عنايته الفائقة بتربية الروح - هو دين الفطرة. فالحق أن الطاقة الروحية في الإنسان هي أكبر طاقاته، وأعظمها، وأشدّها اتصالاً بحقائق الوجود. طاقة الجسم محدودة بكيانه المادي، وبما تدركه الحواس. وطاقة العقل أكثر طلاقة، ولكنها محدودة بما يعقل، محدودة بالزمان والمكان، بالبدء والنهاية، ومحكومة بالفناء.

وطاقة الروح وحدها، في كيان الإنسان، هي التي لا تعرف الحدود والقيود، لا تعرف الزمان والمكان، لا تعرف البدء والنهاية. لا تعرف الفناء. هي وحدها التي تملك الاتصال بما لا يدركه العقل، هي وحدها التي تملك الاتصال بالخلود الأبدي، والوجود الأزلي. . تملك الاتصال بالله، كما أنها هي التي تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان. (١)

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، الجزء الأول، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط ٥، ١٩٨١م -

٤٠١ هـ، ص ٤١-٤٢.

ويمضي الشيخ :

كيف . . ؟ لا نعلم . . !! لكننا نحس . . !!

نحس بإشراق الروح الصافية التي تشمل الحياة كلها في ومضة تشمل الأبد  
والآباد، نحس بسبحة الروح الطليقة التي تجوب آفاق الكون وتتصل بكل شيء حي  
فيه، والكون - كما يقول العلم - كله حياة . . !! نحس بتلك اللحظة الدقيقة  
العجيبة العظيمة الرائعة، التي يرتعش فيها الكيان كله، ويحس في أعماقه أنه يرى  
الله. (١)

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٢.